فاعتبروا يا أولي الأبصار

مشاهداتي في بريطانيا

د. عبد الله مبارك الخاطر

2
ف

فاعتبروا يا أولى الأبصار

مشاهداتي في بريطانيا

د. عبدالله مبارك الخاطر

رحمه الله

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن هذه الرسالة الصغيرة الحجم القيمة الفائدة عبارة عن مقالات للدكتور: عبدالله بن مبارك الخاطر ـ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته ـ قام بكتابتها على شكل مقالات في مجلة البيان الإسلامية، الصادرة عن المنتدى الإسلامي في بريطانيا.

نسأل المولى عز وجل أن ينفع بها قارئها، وَيأْجُر كاتبها ويبارك في كل من ساهم فيها. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الناشر

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبعد.

لقد عشت في لندن حوالي ثلاث سنين، كنت خلالها أتابع دراستي في الطب النفسي، وكان لي نشاط إسلامي في مسجد من مساجدها، مسجد بيكام (Peckham) وكان هذا المسجد يضم نخبة خيرة من الشباب من مختلف البلدان العربية. وقد شاهدتُ في العاصمة البريطانية أموراً تستحق أن يكتب عنها.

وسوف أعرض ما شاهدته على شكل حلقات متوخيًا في عرضي البساطة والعبرة. والله والموفق.

خريج كامبردج

كنت مضطرًا في البداية إلى دراسة اللغة الإنجليزية ـ رغم أني كنت قد درست الطب باللغة الانجليزية ـ من أجل اختبار (الزمالة) ذلك لأن الإنجليز يريدون من الجميع أن يكتبوا ويقرؤوا كما يكتب المواطن الإنجليزي ويقرأ، ولما كنت أعمل في المستشفى في الصباح، فليس أمامي إلا أن أطلب مدرسًا يعلمني فن كتابة المقالات، والعادة المتبعة عندهم أنك إذا أردت شيئًا ما فما عليك إلا أن تعلن إعلانًا صغيرًا على واجهة محل تجاري، أو على لوحة إعلانات لإحدى الكليات، ويأتيك الجواب سريعًا عن طريق الهاتف. جاءني مدرس إنجليزي متخرج من جامعة كامبردج في الأدب الإنجليزي، وأخذ يدرسني مرتين في الأسبوع، وبعد أن تردد على بيتي خمس مرات سألني على استحياء فقال: إن زميلاتي يسألنني كيف ترددت على بيت صاحبك خمس مرات ولم يقدم إليك زوجته لتتعرف عليها. وكان سؤاله نقطة بداية في الحديث عن أمور أخرى غير الدراسة، وكنت أنتظر مثل هذه الفرصة لأنني أعرف بأن الإنجليز لا يحبون أن تبادرهم بالحديث عن أمور لم يسألوا عنها، وعليك أن تنتهز الفرصة فتجيبهم عن تساؤلاتهم إذا سألوا.

قلت له ما موجزه: إن ديننا يأمرنا بحفظ المرأة وسترها، ولا يجوز أن

تخالط أو تجالس غير محارمها. . . ثم سألته عن الاختلاط والخلوة ولو كانت بين رجال ونساء متزوجين، ألا يكون هناك مجال للخيانة الزوجية ولو بنسبة ٥٪ ؟ فأجاب: نعم بل وأكثر من هذه النسبة. فسألته مرة أخرى:

أليست هذ العلاقات غير المشروعة من أهم أسباب الفساد وتفكك المجتمع؟!. قال: بلى.

قلت ما خلاصته: هذه حكمة واحدة من أحكام ديننا الذي يأمرنا بحرمة الاختلاط. . ومن ثم فالمرأة مكرمة عندنا، ولها حقوق كثيرة سواء كانت بنتاً أو زوجة أو أماً، فوليُّ أمرها ينفق عليها ويعمل من أجل سعادتها، وبين الأسرة في ديننا من المحبة والتعاون والتكافل ما لا يتصوره مجتمعكم. قال: هذا جميل ومنطقي. . وقد لمست الصدق فيما يقول.

وعدت أسأله: ماذا تعرف عن الإسلام؟!. فأجاب: خميني وقذافي!!.

فظننته يمزح، ولكن تبين لي أن هذا كل ما يعرفه عن الإسلام، ولا يعرف خريج جامعة كامبردج [!!] أن هناك كتابًا اسمه القرآن الكريم، ولا نبيًا اسمه محمد ﷺ. . وكان الرجل يتحدث أمامي وكأنه طفل صغير، ومعذرة من الأطفال في بلادنا فهم أكثر منه علمًا بدين الله. قلت: لا أدري من المسؤول عن كونك لا تعرف عن الإسلام شيئًا؟!. هل هي جامعتكم ومناهجكم، أم أنت الذي ارتضيت

لنفسك هذه الحال؟. كيف لا يدروسونكم دينًا يدين به ألف مليون من البشر في مختلف بلدان العالم؛ ولبلدكم علاقات تاريخية ومصالح مع بلدان العالم الإسلامي؟ وقبل أن يغادر الأستاذ [!!] منزلي قدمت له مجموعة من الكتب عن الإسلام.. ثم اتصل بي فيها بعد وأخبرني بأنه قد قرأ هذه الكتب وسوف يقرأ كتبًا أخرى عن الإسلام.

قارئي الكريم: كم تمنيت أن يكون عندي متسع من الوقت لأتابع مثل هذا الرجل، ولكن ماذا أفعل وأنا مرتبط بعمل شاق يستغرق معظم وقتي؛ ونشاطي في الدعوة الإسلامية أقدم فيه الأهم على المهم. ولكن هل يعرف [الببغاوات] في دول العالم الثالث حقيقة الغربيين؟!.

لو كان خريج جامعة كمبردج مهندسًا أو طبيبًا لالتمسنا العذر له؛ ولكنه تخرج من كلية تدرس علوم اللغة الإنجليزية وآدابها، ويفترض أن يُدرس شيئًا يسيرًا عن الإسلام..

أما الذين يكثرون في مؤلفاتهم الأدبية والتاريخية من الاستدلال بأقوال المستشرقين فلينظروا ماذا يدرس المستشرقون مثل هذا الخريج عن الإسلام.

اللهم إنها لا تعمى الأبصار ولكن تَعمى القلوب التي في الصدور.

المرأة الغربية والزواج

قارئي الكريم: قلت لك منذ البداية إنني طبيب في الأمراض النفسية، وهذا العمل يتيح لي مشاهدة الوجه الآخر لمجتمعاتنا، والاتصال بأصناف متعددة من الناس رجالاً كانوا أو نساءً، ومن طبيعة الذين يعملون في مثل هذه الاختصاصات الاهتمام بمشكلات الناس، وقد يسير أحدهم في الشارع فتلفت انتباهه أمور لا يهتم بها المارّة. وكم أتمنى أن يهتم العلماء الدعاة بمثل هذه القضايا ويقدمون لها الحلول الناجعة، وسيكون دورهم أهم من دور الأطباء ورجال الأمن، لأن مخالفة تعاليم الإسلام من أهم العوامل التي أدت إلى نشوء مثل هذه الأمراض.

وقد حرصت على ذكر هذه المقدمة حتى لا يستغرب القاريء ما أذكره له من أحداث، وبشكل أخص زيارة النساء لنا في العيادة، والاستماع إلى مشكلاتهن، ولا علاج بدون الاستماع إلى هذه المشكلات ومناقشتها.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى الحديث عن المرأة الغربية والزواج فأقول:

كنت أستغرب عند بداية إقامتي في بريطانيا أن المرأة هي التي تنفق على الرجل، وكنت أشاهد هذه الظاهرة عندما أركب القطار، أو أدخل

المطعم، إذ ليس في قاموس الغربيين شيء اسمه (كرم).

وبعد حين زال هذا الاستغراب، وأخبرني المرضى عن أسباب هذه الظاهرة، وفهمت منهم بأن الرجل لا يحب الارتباط بعقد زواج، ويفضل ما أسموه [صديقة] والمرأة تسميه [صديقًا] وليس هو أو هي من الصدق في شيء، وكم أساءوا هٰذه الكلمة النبيلة، فالصديق يعني: الصدق، والمحبة والمروءة والنخوة والكرم والوفاء، وما إلى ذلك من معان طيبة كريمة.

والصديق عندهم يعيش مع امرأة شهورًا أو سنين، ولا ينفق عليها، بل هي تنفق عليه في معظم الحالات، وقد يغادر البيت متى شاء، أو قد يطلب منها مغادرة بيته، إن كانت تعيش معه في بيته، ولهذا فالمرأة عندهم تعيش في قلق وخوف شديدين، وتخشى أن يرتبط صديقها [!!] بامرأة ثانية ويطردها، ثم لا تجد صديقًا آخر.

وكما يقولون (بالمثل يتضح المقال) فسوف أختار مثالاً واحدًا من أمثلة كثيرة تبين وضع المرأة عندهم.

رأيت في عيادة الأمراض النفسية امرأة في العشرينات من عمرها، وكانت حالتها النفسية منهارة، وبعد حين من الزمن شَعَرتْ بشيء من التحسن، وأصبحت تتحدث عن وعي، فسألتها عن حياتها فأجابت، والدموع تنهمر من عينيها، قالت: مشكلتي الوحيدة أنني أعيش بقلق واضطراب، ولا أدري متى سينفصل عني صديقي، ولا أستطيع مطالبته بالزواج مني، لأنني أخشى من موقف يتخذه، ونُصِحتُ

بالعمل على إنجاب طفل منه، لعل هذا الطفل يرغّبه في الزواج، وها أنت ترى الطفل، كما أنك تراني لا ينقصني جمال، ومع هذا وذاك فأبذل كل السبل؛ من تقديم خدمات، وإنفاق مال، ولم أنجح في إقنـاعـه بالزواج، وهذا سر مرضي، وسبب قهري. إني أشعر بأنني وحدي في هذا المجتمع، فليس لي زوج يساعدني على أعباء الحياة، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمهم سواء، وليتني بقيت بدون طفل لأنني لا أريد أن يتعذب ويشقى في هذه الحياة كما تعذبتُ وشقيت. وهذه المرأة المريضة ليست من شواذ المجتمع الغربي، بل الشواذ هم الذين يعيشون حياة هادئة.. ومع ذلك ينقد الغربيون مجتمعاتنا الإسلامية، ويزعمون بأن المرأة تعيش في بلادنا حياة بائسة محزنة، ونحن لا يهمنا رأي الغرب بنا، ولا نطلب منه حُسْن سلوك، ولكن نريد من نسائنا أن يحمـدن الله سبحـانه وتعالى على نعمة الإسلام، فلقد كانت في الجاهلية ذليلة مهينة؛ وجاء الإسلام ليرفع مكانتها، وبفضل من الله سبحانه وتعالى أصبح الرجل يبحث عن المرأة، ويطلب الزواج منها، وهي قد تقبل وقد ترفض، ولأهلها دور كبير في أمر زواجها، وسواء كانت عند زوجها أو في بيت أبيها؛ فهي عزيزة كريمة والرجال هم الذين ينفقون عليها، بل والذي نشكو منه في بلادنا الغلو في المهور، والتكاليف الباهظة التي تفرض على الرجل حتى يحصل على زوجه. قال تعالى ﴿**يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمُنّوا عليّ إسلامكم بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ الحجرات آية ١٧.

إنها ملكـة !!

كانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها على سبعين عامًا. . وكانت تستثير الشفقة حين تُشاهَد وهي تدخل وتخرج وليس معها من يساعدها من أهلها وذويها. . كانت تبتاع طعامها ولباسها بنفسها. . كان منزلها هادئًا ليس فيه أحـد غيرها، ولا يقرع بابَها أحد. وذات يوم قمت نحوها بواجب من الـواجبـات التي أوجبهـا الإسـلام علينـا نحـو جيراننا، فدهشتْ أشد الدهشة لِما رأت، مع أنني لم أصنع شيئًا ذا بال، ولكنها تعيش في مجتمـع ليس فيه عمـلُ خير، ولا يعـرف الرحمة والشفقة، وعلاقة الجار بجاره لا تعدو في أحسن الحالات تحية الصباح والمساء.

جاءت في اليوم الثـاني إلى منـزلنـا بشيء من الحلوى للأطفـال، وأحضرت معهـا بطاقـة من البـطاقـات التي يقدمونها في المناسبات؛ وكتبت على البـطاقـةَ عبـارات الشكـر والتقـدير لما قدمنـاه نحوها، وشجعتُها على زيارة زوجتي، فكانت تزورها بين الحين والآخر، وخلال ترددها على بيتنا عَلِمَتْ بأن الرجل في بلادنا مسؤول عن بيته وأهله، يعمـل من أجلهم، ويبتـاع لهم الطعام واللباس، كما علمت مدى احـترام المسلمـين للمـرأة سواء كانت بنتًا أو زوجة أو أُماً، وبشكل أخص عندما يتقدم سنها حيث يتسابق ويتنافس أولادها وأبناء أولادها في خدمتها وتقديرها. . ومَن أعرضَ عن خدمة والديه وتقديم العون لهما كان منبوذًا عند الناس.

كانت المرأة المسنة تلاحظ عن كثب تماسك العائلة المسلمة: كيف يعامل الوالد أبناءه، وكيف يلتفون حوله إذا دخل البيت، وكيف تتفانى المرأة في خدمة زوجها.. وكانت المسكينة تقارن بما هي عليه وما نحن عليه.. كانت تذكر أن لها أولادًا وأحفادًا لا تعرف أين هم، ولا يزورها منهم أحد، قد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون، ولا قيمة لهذا الأمر عندهم، أما منزلها فهو حصيلة عملها وكدّها طوال عمرها.. وكانت تذكر لزوجتي الصعوبات التي تواجه المرأة الغربية في العمل، وابتياع حاجيات المنزل، ثم أنهت حديثها قائلة:

إن المرأة في بلادكم (ملكة) ولولا أن الوقت متأخر جدًا لتزوجت رجلاً مثل زوجك، ولعشتُ كما تعيشون.

ومثل هذه الظاهرة يدركها كل من يدرس أو يعمل في ديار الغرب، ومع ذلك فلايزال في بلادنا من لا يخجل من تقليد الغربين في كل أمر من أمور حياته، ولاتزال في بلدان العالم الإسلامي صحف ومجلات تتحدث بإعجاب عن لباس المرأة الغربية، وعمل المرأة الغربية، والأزياء الغربية، والحرية التي تعيش في ظلّها المرأة الغربية!

اللهم لك الحمد أن أنعمت علينا بنعمة الإسلام. قال تعالى: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ الحجرات آية ١٧.

عندما تصطدم المرأة مع فطرتها

إنْ نسيتُ فلن أنسى خلال إقامتي في ديار الغرب صورتين متناقضتين غاية التناقض لامرأة مشهورة تعمل في المحاماة.

الصورة الأولى: توفرت في هذه المرأة الصفات التالية: قوة البنية، ذرابة اللسان، الحماسة لما تؤمن به وتعتقده، النشاط الدائب: فمرة تقرأ مقالاتها في الصحف، ومرة أخرى تسمعها تتحدث في التلفاز وتقارع فحول الرجال الحجة بالحجة.. ومرة ثالثة تستمع إليها في المحاكم تدافع عن القضية التي نذرت نفسها من أجلها.

قد يظن القاريء الكريم أنها محامية لشركة من الشركات أو لمؤسسة من المؤسسات. لا يا أخي. إن عملها الوحيد الدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، ولهذا تجد عندها إحصائيات عجيبة عن الوزارات والمؤسسات والشركات، وعن نسبة الرجال والنساء في كل منها.. وكم أرغمت هذه الجهة أو تلك على قبول عدد من النساء وفصل الزيادة من الرجال. وكم ربحت الحكم ضد شركات أقدمت على تسريح مجموعة من النساء بسبب عدم الحاجة إليهن. كانت هذه المرأة ذائعة الصيت، ولها مكانة كبيرة في المجتمع الغربي، كما كانت مثالاً يُحتذى به للنساء بل وللرجال الذين ينادون بالمساواة المطلقة بين الجنسين.

الصورة الثانية: صورة هذه المرأة وهي مريضة، وقد حولها طبيبها

الخاص إلى قسم الطوارىء في مستشفى الأمراض النفسية الذي كنت أعمل به.. وقد شاهدت بعيني مشهدًا يختلف تمامًا عن المشهد الذي يراه الناس على شاشة التلفاز أو في قاعة المحكمة:

شاهدت امرأة ضعيفة منهارة محطمة، تشعر أنها تعيش وحدها في هذه الدنيا، وليس لها ابن ولا زوج ولا أخ ولا ولد..

أما النساء فيعرفنها محامية قوية تدافع عن حقوقهن، ولا حاجة لهن بها إذا كانت مريضة في المستشفى، أو مقعدة في بيتها، أو في مأوى العجزة.. كنت أعرف مشكلتها قبل أن أسألها، ومع ذلك سألتها حيث لابد من سؤال المريض، والاهتمام بكل ما يقوله.. قلت لها: ما مرضك وبماذا تشعرين؟ فأجابت:

(أريد رجلاً يشاركني الحياة ويقول لي: لا!!.. لقد مللت الحياة التي عشتها، والعمل الذي اخترته).

هذا مرضها أنقله بأمانة ودقة.. وقد قمت بواجبي وأعطيتها العلاج اللازم للمصاب بحالة (الاكتئاب) ولكنني أشعر بأنها لن تشفى من هذا المرض، لأنها لن تجد رجلاً عاقلاً يغامر بحياته وعقله ويتزوجها، وإذا وجدتْ فسوف يكون من أشباه الرجال ولن يقول لها: (لا!!) ومثل هذا الرجل لا يحل مشكلتها.. ومن جهة ثانية فلو شفيت من مرضها وعادت إلى عملها السابق، فسوف تعيد سيرتها الأولى، لأن أمثالها يبحثن عن الشهرة، والطبع عندهن يغلب التطبع.. فهي تريد أن يتحدث الناس عنها مهما كانت النتائج.

أرأيتم المرأة عندما تصطدم مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها؟!
قال تعالى ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرةَ الله التي فطر الناس عليها * لا تبديل لخلق الله * ذلك الدين القيِّم * ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾ الروم آية ٣٠.

والمشكلة أن الناس شاهدوا هذه المرأة بكامل قوتها وذرابة لسانها، ولم يروها وهي على فراش المرض تشكو من المرض النفسي (الاكتئاب) وكان إعجاب الخادعين والمخدوعين بها هو سبب مرضها، ومصدر شقائها وبؤسها وقهرها، وهذا الذي شاهدته بنفسي، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن أراد مزيدًا من الأدلة فليبحث عن نسبة الذين يعانون من أمراض نفسيه من النساء الشهيرات في ديار الغرب، بل وفي ديارنا.

إن قوامة الرجل في بيته خير له ولزوجه وأولاده، والتنازل عن هذه القوامة للمرأة جحيم لها لا يطاق، ومساواة المرأة مع الرجل أكذوبة ابتدعها أعداء المرأة من اليهود والصليبيين والشيوعيين وسائر العلمانيين الملاحدة، وجميع الإحصائيات الحديثة تؤكد فشل هذه الأسطورة.
﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبَهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ النور آية ٦٣.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

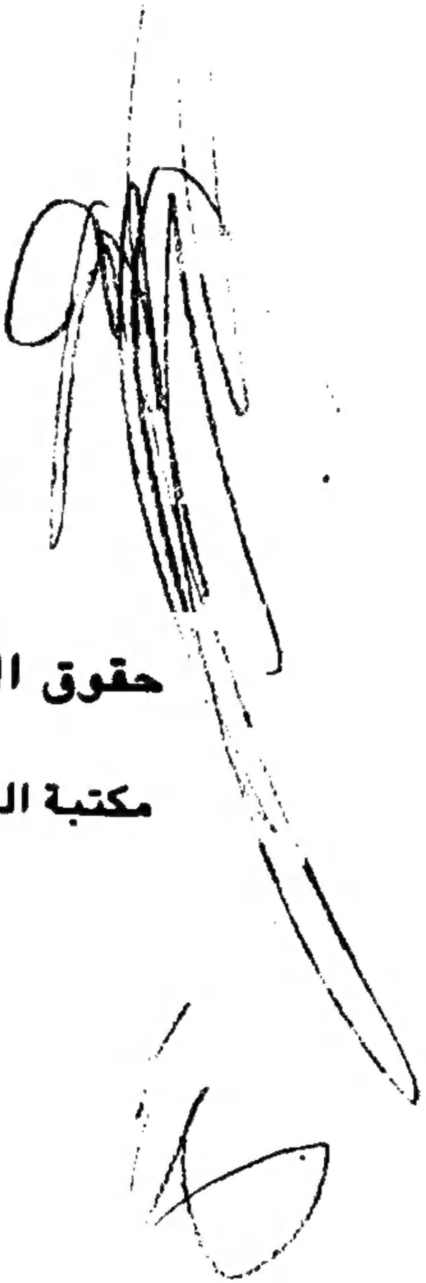

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة السعدي بالبكيرية